

## نظرات هازلت<sup>(١)</sup>

- ٢٧ -

وليام هازلت هو الكاتب الناقد الإنجليزي صاحب الرسائل، وله مؤلفات أهمها رسائله في موضوعات مختلفة، ويمتاز بالنظر في النفوس وخصائصها. وفي بعض الأحيان يذكرنا مونتاني الفرنسي صاحب الرسائل، وله كتاب في سيرة نابليون بونابرت كتبه من جانب الأحرار كما كتب السير والترسكوت سيرة نابليون من جانب المحافظين، وقد بلغ إعجاب هازلت بنابليون حداً لم يبلغه إعجاب جوتا الألماني؛ فإن جوتا كان يعرف عيوبه، وقد كان هازلت مناصراً لنابليون حتى بعد أن تخلى عنه الأحرار الفرنسيون وبالرغم من أنه أرقق إنجلترا بحروبه، وكان هازلت من الأحرار الإنجليزي، ولكنه كان ينتقد تطرف الأحرار أمثال شلى الشاعر الإنجليزي، فاعتناقه لمذهب الأحرار كان مقروناً بالطبيعة العملية وحب الصلاح العملي وفي حدود مستلزماته، فهو من هذه الناحية إنجليزي بطبعه. والظاهر أنه كان يناصر نابليون لأنه كان يعلم أن سقوطه يؤدي إلى روح رجعية في فرنسا وغيرها كما حدث فعلاً بعد سقوطه. وكان هازلت معجباً بأدموند بيرك وعبقريته بالرغم من أنه انتقد أعمال أحرار الثورة ومبادئها، وكان يقدر وردزورث الشاعر بالرغم من إنكاره انقلابه على مبادئ الأحرار، ولم تكن له منفعة شخصية في مناصرة نابليون والإعجاب به، والذي يهمننا من مؤلفات هازلت نظراته في النفس والحياة في رسائله العديدة. ولعلّ هذا سبب إعجاب سمرست موام القصصي به، ولو أنه مدحه لطلاوة أسلوبه، وله كتاب (رسائل حديث المائدة) و (رسائل المائدة المستديرة) و (رسائل وترسلو) وغيرها، وله كتاب فلسفي لاداعي للكلام

(١) المقتطف، يناير سنة ١٩٥١.

عنه إلا أن نقول إن شغفه بالفلسفة ربما كان من أسباب عمق بصيرته فى رسائله التى عنى فيها بالنظر إلى خصائص النفوس، وكان مولعاً فى صغره بالرسم، ولكن غلب عليه الأدب، وكذلك كان مولعاً بالشعر، وله رسائل فى نقد الرسامين والشعراء، وله بحوث فى قصص شكسبير وأشخاصها، وفى قصص شعراء عصر الملكة اليزابيث التمثيلية. ولعل دراسة هؤلاء كانت أيضاً من أسباب بحث خصائص النفس والحياة. وكان صديقاً لكولريديج الشاعر ولشارلز لامب صاحب الرسائل المعروفة. ولم يكن موفقاً فى حياته الزوجية، كما لم يكن موفقاً فى اجتذاب الأصدقاء واستبقائهم ولا فى تجنب الخصوم وتآلفهم. وقد أثر أقوال الخصوم فى رأى بعض الكتاب إلى عصرنا هذا. وقد اتهم بمناقضة نفسه؛ إذ يمدح الإنسان ثم ينقده، ولكن ذمه أو نقده لمن نقده كان من جانب آخر غير الجانب الذى مدحه به، كما رأينا فى نقده لادموند بيرل الخطيب العبرى وللشاعر وردزورث الخ. ومن قرأ رسائله وجد أنه فى أكثرها أعظم اتزاناً مما يظن خصومه. ولعل كثيراً من الإنجليز لم يغتفروا له - كما لم يغتفر بعض الألمان لجوتا - إعجابه بعبقرية نابليون وإصلاحه وتنظيمه، وذلك لاعتداء نابليون وإرهاقه الدول وتعطيله التجارة فسئمت تكاليف الحياة.

### وفيما يلى بعض نظراته مع تعقيب قليل على بعضها -

١ - إن الذين لم يتعودوا أن يجادلهم مجادل وأن يعارضهم معارض لا يعرفون كيف يقابلون المعارضة والمحااجة. فإذا فاجأتهم معارضة تلمسوا طريق الفرار قانعين بالانخزال. ومفاجأة الأمر الذى لم يتعودوه تفت فى عضدهم فتصيبهم الدهشة والخوف من الأمر الغريب، وربما بعث الأمر الغريب الذعر والقلق والحيرة والارتباك، فالمعارضة والمجادلة والمحااجة أمور تعود المرء الاعتماد على نفسه وعقله.

٢ - إن حب الإنسان للحياة وتعلقه بها وتشبُّهه لا يكون على قدر هناءتها ودعتها، وما يلاقى فيها من دواعى السرور فإنك قد تجد الرجل المكدود الذى لا ينال رزقه إلا بشق النفس أكثر تعلقاً بالحياة من الوارث المنعم الملول الذى يجد كل شىء مستطاعاً، ومع ذلك قد لايلذ له شىء، وربما يخع نفسه من الملل.

وإنما يكون تعلق الإنسان بالحياة على قدر رغبته ومطالبه منها التي لم ينلها بعد ولم يحصل عليها. وكثيراً ما تكون العقبات والمطالب حافزاً له على التشبث بالحياة والاستمساك بها. فالذي يريد أن يتخذ من تشبث الإنسان بالحياة دليلاً على أن السعادة فيها أغلب وأعم من الشقاء، وأنها أمر قيّم قى ذاته، إنما يتخذ منطقاً غير صحيح كى يثبت به أمراً ربما كان صحيحاً.

٣ - قد تكون شدة عاطفة الإنسان ورغبته سببها العوائق التي تعوق عن الأمر المرغوب فيه، وليست قيمته ولا عظم فائدته هى السبب. فكم من أمر كنا لانقيم له وزناً ولا قيمة، ولا نأبه له كثيراً وهو فى يدنا، حتى إذا خرج منها ولم يعد فى حيازتنا، اشتد طلبنا له وأسفنا على فقدانه إذا كان ليس فى استطاعتنا أن نحوزه.

٤ - كل ماهو خير فى نفس المرء قد يدفعه إلى الشر والإجرام لانتصاره لما يرى أنه حق وفضيلة، أو كمناصرته لعقيدته، أو كإخلاصه لوطنه، وذلك لأنه أصعب على المرء أن يبذ مخالفة أو خصمه بالفضل، وأسهل أن يقهره وأن يوذيه بالاعتداء والبطش، وفى كل نفس - مع ما فيها من خير - ميل إلى الشر مكبوت كالكلب المفترس المكتم، فإذا استطاع المرء أن يخلق عذراً لنفسه بأية وسيلة رفع الكمامة وأطلق ذلك الكلب المفترس والوحش الضارى وأجراه على الناس كى يؤذيهم، فكل ما ينقص الإنسان كى يصنع الشر هو اختلاق العذر ومن أجل ذلك ينبغى أن يحذر المرء جانب الخير من نفسه، وحيّز الفضيلة منها بقدر حذره جانب الشر والرذيلة.

٥ - يقول بعض الناس: إن الرذائل إذا زينت وحُسنتُ فقدت نصف شرها وعندى أنها تزداد شراً بتلك الزينة التي تكتسب من زينة أصحابها. ومن رشاقة ظاهرهم، أو من تغييرهم أسماءها، أو من تحليتها بشيء من الفنون الجميلة يُجَمِّلُهَا وَيُخْفِي قُبْحَهَا وَسِنَاعَتَهَا، أو من مظاهر الغنى والترف التي تغطى عليها، فيقبل الناس عليها، بدل النفور منها، ويرتادونها بدل الفرار عنها.

٦ - كثيراً ما يلجأ الناس إلى الاضطهاد فى معاملة ذوى الاضطهاد، وإلى قلة التسامح مع أعداء التسامح، فلا يزول الاضطهاد ولا تمتنع قلة التسامح، وقد يكون الاضطهاد لغير صد عادية ذوى الاضطهاد، بل للذة تجدها النفوس فيه.

٧ - إن تنبُّ عقل الإنسان للأمور لا يكون على قدر الفائدة والعائدة من تلك الأمور، وإنما يكون على قدر وقعها من نفسه وأهوائها وهواجسها، وقد لاتتناسب شدة وقعها من نفسه وأثرها فيها مع الفائدة المرجوة منها، بل قد يكون أثر شدة وقعها من نفسه مثل أثر الإشراف من مكان مرتفع على هوةٍ سحيقة، فيحسُّ المرء إحساساً بالاندفاع إلى تلك الهوة، وذلك الحضيض، ويكاد يرمى بنفسه فيه، وقد يفعل وهو يعرف أنه هالك لامحالة إذا فعل، وأنه لافائدة له إذا رمی بنفسه فيه.

٨ - إن بعض الناس لهم قدرة غريبة على ربط أنفسهم بكل موضوع للحديث حتى يصير حديثاً عن أنفسهم بعد أن كان حديثاً عن الموضوعات العامة مثل الكتب أو الحضارة أو الريف أو الشعر أو الفلسفة أو السياسة أو المجالس النيابية أو المباني أو أى موضوع آخر لاصلة لهم به، ولكنهم بمهارة سحرية يحولونه إلى حديث عن أنفسهم، وإلى محاولة لتمجيد خصالهم وصفاتهم وأعمالهم، حتى إن جلسهم يكاد لايعرف كيف تحوّل الموضوع.

٩ - ومن الناس من لهم موضوع حديث واحد غالب عليهم ولازم لهم لزوم الظل لصاحبه (فإذا كان الحديث عن الخلاقة حولوا كل حديث مهما كان موضوعه إلى حديث عن الخلاقة) ومثل هؤلاء مثل الآلة الموسيقية التى لاتخرج غير نغمة واحدة، ويدور بها الشحاذون يستجدون فيطلقون النغمة الواحدة منها فى كل مكان مرّة بعد أخرى. وكذلك أصحاب الفكرة الواحدة أو القصة الواحدة التى لاتفارقهم ولا يفارقونها أبداً ويحكونها ويرددونها فى كل مجلس حتى المجالس التى سبق ترديدهم لها فيها، وبجدون لذة فى ذلك، ولا يشعرون بما يعانيه جلساؤهم من ألم وملل وامتعاظ.

١٠ - ومن الناس من يابون إلا أن تقتنع بآرائهم، فإذا سكتَّ وشعروا أن سكوتك من عدم الاقتناع، لجوا فى ذكر آرائهم وترديدها وإعادة ذكر حججهم ويابون تغيير موضوع الحديث إذا حاولت أن تغيره بلطف، وإذا اعترفت لهم بما يريدون كى تنقى إلحاحهم وشعروا أن اعترافك لهذا السبب وحده دون الاقتناع،

فإنهم ربما أعادوا الكرة عليك بأرائهم وحججهم، ولا تقنعهم بمجاملتك لهم حتى يروا مظاهر الاقتناع منك بادية عليك، سواء أكان وراء تلك المظاهر اقتناعٌ حقيقى أم كنت ماهراً فى تزييف مظاهر الاقتناع حتى يخدعوا بها.

١١ - قال الإسكندر المقدونى: لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون ديوجينز الفيلسوف. وهذا الاستثناء صفة عامة فى النفوس، فإذا سمعت إنساناً يود أن يكون إنساناً آخر فهو إنما يود أن يظل على شخصيته، وأن يزداد عليها ثروة المغبوط أو علمه أو ذكائه أو جاهه أو قوته إلخ. أما أن يتمنى المرء مع حيازته لهذه الأمور المغبوطه أن يفقد شخصه ونفسه فأمرٌ لا يقبله أحقر صعلوك، لأنه لو فقد ما يميزه عن غيره من ذكريات وخواطر وصفات وآمال وإحساسات وصار إنساناً آخر لم ينتفع بالأمور المغبوطه التى حازها، بل المنتفع يكون إنساناً آخر غير نفسه، وقد خسر نفسه بدل أن يزداد عليها.

١٢ - بالرغم من صغر شأن كل إنسان فى العالم ومعرفته صغر شأنه فإنه قلما يطمئن إلى أن العالم لا يباليه ولا يهتم له كما يبالى نفسه وكما يهتم لشئونها فيدهش ويرى أن ذلك من قلة الإنصاف كأنه يرى أن من الواجب أن يبالى العالم نفسه وشئونها كما يبالىها هو، مع أن الأمر عكس ذلك؛ إذ من الأمور الطبيعية ألا يقيم الناس وزناً لأموره كما يقيم هو وزناً لها، وقد يفتن إلى ذلك بعد الغفلة، ولكن هذه الفطنة لاتلبث أن تزول، فإذا فوجئ مرة أخرى بالشعور بقلة مبالاة الناس إياه دهش مرة ثانية ثم مرة ثالثة، وهكذا لاتفاجئه تلك الدهشة كلما فوجئ بقلة اهتمام العالم له كما يهتم لنفسه، وعدم إقامته وزناً لأمور غيره كما يقيم لها وزناً. وقد تكون دهشته فى كل مرة مثل دهشته فى المرة السابقة وقلقه وقلة اطمئنانه مثلهما فى كل مرة يشعر أن العالم لا يباليه كما يبالى أموره ولا يفيد من المرات السابقة عظة.

١٣ - إن الذين يبالغون فى قدر قيمة فضائلهم أو مزاياهم أو آرائهم كأنهم ينظرون بعين من أصابه اليرقان، إذا نظروا إلى آراء غيرهم أو فضائلهم أو

مذاهبهم أو مبادئهم، فتظهر لهم كما تظهر الأشياء مصفرة كريهة فى عين من أصيب بداء اليرقان، والذين عانوا الاضطهاد من غيرهم كثيراً ما يتعلمون منه كيف يضطهدون غيرهم بدل أن يتعلموا ضرورة التسامح. ومن أجل ذلك يصل الناس إلى قَصْرِ صدق النظر والمبدأ والأخلاق والرأى على طائفتهم وحدها مهما تكن تلك الطائفة صغيرة، وهذا ضيق فى الذهن لا يمكن صاحبه من أن يفهم أن عقول الناس تختلف كاختلاف وجوههم، وأن اختلاف الآراء والمبادئ والمذاهب أمر ضرورى، وأن أنواع الفضل متعددة، وينبغى أن نقبلها على اختلافها، فإن اختلافها دعامة الحياة.

١٤- إن الناس يقيسون الدنيا وأمورها بأنفسهم لا بقدر تلك الأمور، فما بعد عنهم مكانه فى الأرض أو منزلته من نفوسهم صغر حتى ولو كان كبيراً عظيماً. وشأنهم فى ذلك شأنهم فى قدر الحوادث والأمور التى يبعد بها الزمان فتقل قيمتها إذا ابتعدت بعد قربها، فسيان أكان البعد بالمكان والمنزلة أم بالزمان فإنه يصغر قيمة الأمور.

١٥ - من الناس من يلطخون إنساناً بالوحل، ثم ينادون أنه ينبغى تجنبه لأنه ملطخ بالوحل، وهى عادة فاشية فى الناس فينسبون إلى خصومهم صفات سيئة، ثم يتخذونها حجة لاضطهادهم وحث الناس على اضطهادهم، وهذا أمر يقلب مقاييس العدل فى الأمور؛ إذ يصير الجانى المجرم حكماً ينال الثناء ويصير المجنى عليه أثماً نصيبه العقاب.

١٦ - إن الشباب يشعر بالقوى الحيوية أكثر من الشيوخ. ومن أجل ذلك قلما يدرك الشباب معنى الفناء والموت مهما رأى من مظاهرها فى غيره؛ فإن ذلك لا يكون إلا بعد أن يفقد الروح الحيوية التى فى الشباب. وبعد أن يشعر بالفناء يدب فى جسمه، وبعد أن يرى آماله ومسرته تذوى كما تذوى الأزهار، أما قبل ذلك فإنه يشعر فى الشباب أن الحياة كنز لا يفنى، وكأس من الرحيق لا يفرغ مهما احتسى منها وأراق، وذخر لا ينفد مهما بذل منه؛ لأنه روح الخلد فى الشباب. ومن أجل ذلك يسرف الشباب فى بذل ما يفيض به من قوى الشباب وحيويته

إسرافاً قلما تنفع معه موعظة، ويقدم على المهالك بشيء من الاطمئنان، ولا يغتر أحد بكثرة شكوى الشبان، فإنها لا تنافى ذلك، بل هى ناشئة من أنهم قد لا يجدون إسعافاً من الدهر بقدر ما فيهم من حيوية وآمال ورغبات.

١٧ - إن الناس مثل آلات تدار أو حيوانات يعلق عليها نير مناصب الحكومة أو الأعمال الحرة والمهن والحرف، فيسيرون فى الطريق التى اختطها من سبقهم، وينجحون فى تأدية ما يراد منهم ويسعدون بنجاحهم، فكأنما ذلك النير هو نير السعادة وسرجها ورباطها. وكل ما يطلب منهم ألا يدعوا أنهم أحكم وأعرف من غيرهم ممن أدركهم أو سبق عصرهم، فإذا هيا لهم حب الظهور أن يظهروا ذكاءً أو غروراً أو اغتراراً بالحكمة أو أنهم يعرفون من الأمور المنوطة بهم ما لا يعرفه غيرهم، فإن ذلك قد يكون سبب خيبتهم، فإنه إذا صرفنا النظر عما يجلبه عليهم هذا المظهر من عداوة وحسد، فقد يتخبطون فى التجارب والنظريات، ولو فرضنا أن إنساناً منهم مصيب فى بعض آرائه وخططه فإنه قد يغالى بقيمة شأن أكثر المبتدعين فتفقدته المغالاة الاتزان والاعتدال. وعلى العموم أو فى الغالب يكون حذق الجماعة أعظم من حذق الواحد الفرد، ورأيهم أصوب من رأيه، وخبرتهم أعظم من خبرته إلا من شدّ وندر، ولا يصح أن يتخذ كل إنسان الشاذ النادر من الملكات قاعدة، وأن يعد كل إنسان نفسه من ذوى الملكات النادرة، وإلا ما كانت كذلك، وأمور الحياة تقتضى المشاركة والتعاون، وإذا زوى الإنسان وجهه عن الأمر المألوف المعتاد، وحاول بتجنبه أن يخطط لنفسه خطة جديدة لم يجد مشاركة ولا معاونة من الناس، وانصرفوا عنه أو اضطهدوه، وهى سنة وطبع فيهم، تسبب اعتدال أمور العالم وثباتها، بدل تقلقلها وتدحرجها وترجّحها.

١٨ - قد تختلط فى نظر بعض الناس طيبة القلب وعدم المبالاة؛ فإن ذوى الأثرة وحب الذات لا يباليون أخربت الدنيا أم عمرت، وهل عمّ الفساد أم لم يعم، وهل انتشر الشر أم لم ينتشر، وهل خُذِل الحق، أم لم يُخَذَل، وهل اشتدت القسوة، أم لم تشتد، مادام كل ذلك لا يمس مصالحهم، فتحسب قلة مبالاتهم وأخذهم الأمور بالخلق الهين اللين من طيبة قلبهم، مع أنهم لو مُسُّ أمر من أمورهم، زالت قلة مبالاتهم وأظهروا عنفاً وشدة.

١٩ - إننا لا نبلغ الحق ولا ننصف الناس إلا إذا عرفنا وقدرنا جانب الصواب والحق الذي كثيراً ما يكون ممزوجاً بأخطاء الناس وأغلاطهم، فإذا جافينا أو أخطأنا ذلك الجانب من الصواب والحق، أو حدنا عن الحق الممزوج بالباطل المنقود، فإننا قد نخطئ بقدر خطأ من نقتدهم أو نلومهم.

٢٠ - يحسب المرء أن استسلامه للخيال اللذيذ، وأحلام اليقظة السارة، أمر برىء لاضرر منه. والحقيقة هي أن من يتعود ذلك الاستسلام كثيراً ما يضعف عزمه ويفقد الأهبة والاستعداد والنشاط للعمل، ويدعوه استسلامه للخيال إلى الاستئمان إلى ما قد يأتي عفواً من غير تدبير منه، أو سعى أو كد وكدح، وكذلك من ينصرف إلى التفكير النظري كل الانصراف. ولا يتعود التفكير في الأعمال، فإن ذهنه يشغل بحقائق بعيدة يكون المرء أمامها كالناظر المنتزه بالنظر والتأمل ليس له موارد من همه يجهزها لملاقاة حقائق الحياة القريبة ولا من عزم وعمل وإقدام ينال به خيرها، ويصد عنه شرها ويحتال لها، بل قد تدركه الحيرة.

٢١ - ينمى بعض الكتّاب على الفقراء دناءة حسدهم للأغنياء، ولا ينعون على الأغنياء دناءة الإسراف في اللهو، وهم يرون الفقراء يُعصرون في معصرة الشقاء، ويداسون كما يدوس صنّاع النبيذ العنب بأقدامهم.

٢٢ - لو كان اعتياد المرء الآراء بسبب قهر المنطق الصحيح لعقله ولنفسه على أن يعمل لرأى أو فكرة ما - لكان كل الناس شهداء المنطق والفكر، ولا يستطيعون أن يخففوا عن أنفسهم وعن الناس مما يقتضيه العمل حسب ما يوحى به، ولكن الواقع أن الناس تستطيع أن تعتقد ما يوافق إحساساتهم، وهذا يمكنهم إذا كان فيه راحة لهم أو منفعة، وأن يخففوا عن أنفسهم أو عن الناس كما يمكنهم من مناقضة أنفسهم إذا كان فيها تخفيف عن أنفسهم أو عن الناس.

٢٣ - من أسباب قبول الناس للآراء والأخبار والشائعات أن كل إنسان يخشى أن يشذ عن الناس ويخاف ألا يكون مثلهم. ومن أجل ذلك يلتفتون الآراء والشائعات والأخبار بعضهم من بعض، فهذا الإنسان يصدق أمراً ويقبله لا لأنه أمر يصدق، بل لأن ذلك الإنسان يصدقه ويقبله. وأغرب من ذلك أن هذا

الإنسان يصدق ويقبل الأمر الذى يخيل له أن ذلك الإنسان سيصدقه وسيقبله أو سوف يقبله، فيسبقه إلى تصديق ذلك الأمر، وربما كان هذا السبق سبباً فى أخذ المعاشر المسبوق به وتصديقه إياه، ولولاه ما أخذ به كما زعم السابق أنه سيأخذ به .

٢٤ - فى بعض الأحيان نرى أن شدة الشغف بغاية ما، وشدة اللهفة للوصول إلى الغاية والمقصد تعوق عن إجادة الوسيلة التى تؤدى إلى تلك الغاية؛ لأن الوسيلة تحتاج إلى تأنّ وصبر وجلد وزمن ومران، فيراها الملهوف طويلة مملّة، وتسبقتها لهفته فى الوصول إلى الغاية المنشودة، فيحاول الوصول إلى غايته من أقرب الطرق، حتى ولو أدى ذلك إلى أن يخطئ طريقها، ولا يجيد فى وسيلته إليها.

٢٥ - إذا رغبتنا فى أمر زاد اعتقادنا إياه وتصديقنا به، وصرنا أكثر عناداً فى الدفاع عنه، ولكننا إذا خالفنا الناس جميعاً ربما اعترانا الخجل من إظهار رأى يخالفه الناس جميعاً، حتى ولو كان عين الصواب، فإن قدرة الناس تضغط علينا، سواء أشعرنا أم لم نشعر بها، كما تضغط قوة الجاذبية على جميع الكائنات. والإنسان الذى يستمر فى الدفاع عن رأيه من غير أن يتأثر بمخالفة الناس وسخرهم وكرههم إياه وحرمانه من عطفهم، وبالرغم من إيذائهم إياه - يكون ذا عزيمة كعزيمة الهنذى الذى ينذر لألهته أن يظل رافعاً يده إلى السماء حتى تتبلد وتجمد وتفقد الإحساس. ولاشك أن عداء الناس للمرء محنة قد تبعته إلى الشك فى بواعث نفسه ونياتها ومقاصدها، وكأنما قد زحزح جنىُّ مارد الكرة الأرضية من تحت قديمه وظلّ معلقاً وحده فى الفضاء.

٢٦ - زعم هوبز الفيلسوف أن الناس لا يختلفون فى أن مجموع زوايا المثلث يساوى زاويتين قائمتين، وأن مجموع الاثنى عشر والاثنى عشر أربعة؛ لأنهم لا مصلحة لهم فى هذا الخلاف. ولو كانت للناس شهوة ملحة، أو منفعة فى إنكار ذلك لأنكروا هذه الحقائق الرياضية، والواقع أنهم عند تطبيقها فى أمور الناس التى تستدعى الشهوات والرغائب والخلاف يختلفون فعلاً فى هذا التطبيق.

٢٧ - كثير ممن يدينون بالديمقراطية يدينون بها نظرياً، أما فى الأمور العملية فإن كل إنسان لا يدين بالديمقراطية ولا يأخذ بمبادئها الذى هو مبدأ المساواة، ويود لو يضحى بالناس لإشباع أطماعه، وأن يخفضهم كى يعلى نفسه.

٢٨ - قلما يوجد بين الناس من عنده شجاعة كافية للدفاع عن إنسان صديقاً كان أو غير صديق إذا ترددت حوله أقوال الناس بالتهمة والشتم فإنه يخشى أن يتهم مثله. وأن يلاقى عداء من الناس، هذا علاوة على أن كل إنسان يميل إلى إعلاء نفسه بشتم غيره وانتقاصه، فإذا وجد الناس يلتقطون إنساناً وجد السبيل موطأ إلى هذا الإعلاء لنفسه (ولو وكل الخصم كما قال هلبس كمحام بأجر مقنع للدفاع عن خصمه لوجد من أبواب المدح ما يبطلُ به ذمه لخصمه).

٢٩ - ينسى الناس فى معاملتهم أنهم لا يتعاملون بالعقل النظرى المحض، وإنما يغطى على أعينهم فيحسبون هذا الحسبان، وإنما هم يتعاملون بما هم محكمون به من الشهوات الجامحة والنزعات الشاردة، وقد يتخاصمون ويسعى كل فى أذى الآخر بسبب الاختلاف فى أتفه الأمور، فهم كالأطفال المدللين، فحياة الناس كثيراً ما تكون لعبة من لعب التمويه والغش، فهم يريدون أمراً وسعادتهم فى غيره، أو أنهم يجدون السعادة فى ذلك اللعب نفسه، ولكنهم فى النهاية ربما يجدون سُور كأس تلك السعادة مُراً كريهاً.

\*\*\*

## نظرات السير آرثر هلبس<sup>(١)</sup>

- ٢٨ -

إن بعض نظرات السير آرثر هلبس تذكرنا قول جوتا: -  
«إن الصواب المجهول إذا عرفه الإنسان كانت له فجاءة الأمر المتوقع وبغته  
الأمر المعروف المنسى». كما أن بعضها يذكرنا قول جوتا أيضاً:

«إن الناس يزهدون في الحق؛ لأنه معروف مملول مألوف، والألفة تبعث  
الملل، وهم لا يستطيعون تطبيقه وإنجاحه وتحقيقه فهو يشق عليهم في العمل،  
وإن كان لا يشق عليهم في الفكر».

ولقد كان منذ عهد الصغر كثير القراءة والاطلاع، وكان يجمع بينهما وبين  
التفكير فيما يقرأ، فنشأ عن ذلك أنه نشر نظراته في عهد الشباب، فدلّت على  
حكمة الكهول وعلى إصالة الفكر، وكان من أصدقائه آرثر هالام وتنيسون  
وغيرهما من الكتّاب والشعراء. وكان مثقفاً ثقافة عامة، فكان قصصياً، وكان  
مؤرخاً، وكان كاتباً أدبياً، وكان سياسياً من الأحرار المعتدلين، وكان ملماً باللغات  
وأدائها، وقد ذكره رسكين في بعض كتبه وقرنه إلى أفلاطون وكارليل وقال عنه:  
إنه كان ذا بصيرة بالأمور وأصالة في الرأي.

وقد نسى الناس قصصه وكتبه التاريخية ولم يبق غير نظراته وأفكاره ورسائله.  
وهذه نظراته تدع القارئ يحكم عليها أو لها. وهو سيجد فيها فكراً عميقاً وبصيرة  
بالنفس الإنسانية، كما سيجد فيها طلاوة الخيال الذي يوضح الحقائق ويفسرهما،

(١) المقتطف: فبراير ١٩٥١.

وقد تولى منصباً فى المجلس الخاص فى عهد الملكة فكتوريا، وكان من المقربين لديها.

### وفىها يلى بعض نظراته مع قليل من التعقيب :-

١ - إذا أساء إلينا مسيء وكانت لنا سلطة وقدرة عليه وتحكم فىه فإننا قد نشعر بالغضب ونظهره أكثر من شعورنا به وإظهاره إذا لم تكن لنا تلك القدرة على المسيء، وهذا من طغيان الطبيعة البشرية التى قد تسهل على المرء تحمل الإساءة ممن لا سلطة له عليه، ثم يقتص لنفسه ممن له سلطة عليه، بإظهار الغضب والاستسلام له والتمادى فيه.

٢ كثيراً ما ننسى أن من الناس ناساً يلبسون نفوسهم كمن يلبس ثيابه مقلوبة، فيظهر الوجه الأقل حسناً ويختفى الوجه الزاهى الكثير الحسن.

٣ - من الخطأ أن يقال إن المرء إذا تعود معرفة عيوب معاشريه ونقائصهم لا يآبه لها ولا يحسّ بها، فالواقع هو أننا نزداد شعوراً بها حتى أننا كثيراً ما نحسب أننا نجدها فى حالات لا توجد فيها ولا ترى، وذلك من سوء الظن الذى يلازمنا فى عشرتهم.

٤ - ليكن اغتفارك ما تغتفره للناس وما تصفح عنه أشبه بالنسيان منه بالاغتفار، لأنه إذا لم يكن كذلك كان الاغتفار أشبه بالمنّ عليهم والاعتداء الذى يكرهونه، وقد يمقتونك من أجله.

٥ - لا تتوقع أن تسمع من كل إنسان شرحاً مقنعاً لأسباب سلوكه، لأنه كثيراً ما يغفل عن أهمها أو يسهو عنها أو ينساها ولو أن أثرها موجود فى نفسه. وكثيراً ما يتقدم المرء للسامع بالأسباب التى يظن أنها راجحة محبوبة عند سامعه وإن لم تكن أسباب سلوكه الحقيقية أو أهمها، وإنما يفعل ذلك تقريباً إليه ورغبة فى نيل التزكية منه، فتتم تلك الأسباب التى يفسر بها سلوكه عن رأيه فى خصال سامعه الذى يزكى نفسه لديه وتفشى رأيه المستتر فيه.

٦ - من الصعب الحكم على أسباب الخصومة؛ لأن ظروفها القريبة قد لا تكون ذات صلة بالأسباب الحقيقية، كما أن مكان المعركة قد لا يكون سبب حدوثها،

وكثيراً ما تختفى الخصومة كاختفاء الماء الذى يجرى فى بطن الأرض ويخرج فى مكان سحيق بعد أن تعتوره أحوال عديدة، ولا يدل مكان ظهوره على نشأته.

٧ - إذا تودت الاستسلام لمحبى أنفسهم من ذوى الأثرة طلباً للراحة من عناء إلحاحهم، فإن ذلك كثيراً ما يؤدى إلى تضييع ما هو أمانة فى عنقك من مصالح الناس عامة، وليس بعد تضييع الأمانة إلا إنكارها وإنكار تضييعها والإمعان فى الظلم وما يجره من الفساد والشرور وسخط الناس.

٨ - لا تجعل غضبك وامتعاضك مقياساً لخطأ أحد الناس، فإن الغضب والامتعاض قد لا يعادلان إساءته أو خطئه، وإذا تودت ذلك تودت الظلم وقلة الإنصاف، لأن للنفس حالات تغضب فيها من الخطأ القليل، غضباً أشد من غضبها من الخطأ الكثير فى حالات أخرى أو مع أناس آخرين.

٩ - كثيراً ما يهوى الناس مناقضة الصفات المعروفة فى نفوسهم ومخالفتها، فترى الرجل الكثير التغاضب والشراسة يجنح فى بعض الأحيان إلى اللطف والدعة والتسّمح لكى يضلّل الناس إذا أحس أنهم فطنوا إلى شراسة طبعه.

١٠ - لو أعطى الإنسان القدرة على أن يتحول بالتمنى وأن يكتسب به جمالاً لما تمنى إلا ما يجعله نسخة جميلة لشخصه قبل التمنى، وكذلك لو استطاع أن يحول نفسه بالتمنى فإنه لا يتمنى لها إلا أن تكون نسخة جميلة من صورتها الأولى قبل التمنى.

١١ - لو بحثنا ما يسميه الناس الثبات فإننا نجد فى كثير من الأحوال الإلحاح الناشئ من حب الذات والإصرار الناتج منه فيتزيماً، فى رأى الناس بزى الثبات على المبدأ ويسمى باسمه.

١٢ - لو استطاع الساخط على إنسان أن يحس كأنه محام يدافع عن المغضوب عليه بأجر يرضيه، لدهش لكثرة الحجج التى يستطيع أن يدلى بها لصالحه، كى يثبت براءته أو عذره وكى يثبت إساءة نفسه فى سخطه.

١٣ - إن سرورنا بمن نستطيع أن نغير رأيه أعظم من سرورنا بمن يوافقنا قبل الحاجة، وقد يعرف الماكر هذا الأمر فيختلف معنا اختلافاً قليلاً ثم يعود فيظهر الاقتناع برأينا كي يسرنا سروراً يدفعنا إلى قضاء حوائجه.

١٤ - إذا استسلمت إلى سوء الظن وجدت غذاءً كافياً لسوء ظنك يزكيه، كما أن أذن المؤرق اليقظان يسترعى انتباهها في سكون الليل كل صوت خافت.

١٥ - إن الناس يلجئون إلى الغش ويعدونهم أسهل الوسائل وأقربها، مع أن صاحب الغش لا بد أن يكون ذا نفس يقظى وعينين متنبهتين وأذنين سامعتين لكل أمر، كي لا ينكشف غشه فهو في أشق الأمور، وأسهل منه الصدق في المعاملة فلا يحتاج الصادق إلى تنبه جوارحه لتغطية كذبه.

١٦ - إن الناس يعتدون النصيحة التي ينصحهم بها غيرهم كالضرائب المباشرة المفروضة عليهم كلما ازدادت مقت الناس لها، وقلما يلتجئ المرء إلى طلب النصيحة من غيره إلا إذا أراد تزكية ومدحاً منه لعمله أو قوله أو فكره. وإذا فطن أن في النصيحة من غيره فائدة لغيره شك فيها وتجنبها حتى ولو كانت فيها فائدة لنفسه، وأضيق النصيح أن تنصح إنساناً بعمل ما لا يستطيعه.

١٧ - إن ذا الحاجة إذا طلب منك طلباً وكانت في قولك له كلمة يصح أن تحمل على محمل الوعد وأن تؤوّل إليه وأن تفسر به فإنها تكبر في ذهنه بالأمل حتى تصير كالجنى المارد الذي خرج من القمقم في قصة ألف ليلة ويقاضيك إياها ويعدك حائناً كاذباً قليل الوفاء كثير الغدر.

١٨ - من الأمور المضحكة المعتادة أن نرى إنساناً يلح على آخر كي يقبل منه عطاء أو هدية أو معروفاً، وصاحب العطاء أو المعروف في سريرة نفسه لا يريد من الآخر أن يقبل معروفه أو هديته أو عطاءه، بينما نرى الآخر يقبل العطاء متضايقاً من إلحاح الأول ويخشى أن يجرح إحساس ذلك الملح إذا رفض عطاءه أو معروفه، وهو بقبوله المعروف يزداد مقتاً في سريرة الأول.

١٩ - قد يكون غضب إنسان منك ناشئاً من غضبه على نفسه بسبب استسلامه إلى هذا الغضب وعدم قدرته على كبحه وقلة تقديره لهذه الحالات النفسية منه .

٢٠ - إن الأمور النبيلة الجليلة إذا تأملها المرء طويلاً بإنعام ولم يتأمل غيرها فإنها قد تجعله غير قادر على تبيين الأمور والحكم عليها حكماً صحيحاً، ومثله مثل من ينظر إلى الشمس المتوهجة مدة طويلة حتى لا يستطيع أن يميز الأشياء .

٢١ - كما أنه من الصحيح في العلوم الرياضية أن يقال إن النقطة الواحدة لا تعين اتجاه خط مستقيم وهي أخرى ألا تميز اتجاه الخط المعوج . كذلك لا تستطيع أن تحكم بعمل واحد يعمل المرء على خلقه بوجه عام . فإن خلق الإنسان حتى من كان ساذجاً كثير الاعوجاج . ومع ذلك يسرع الناس إلى الحكم على أخلاق إنسان بعمل واحد من أعماله .

٢٢ - إن من إتقان النفاق والخداع أن يكون صاحبهما عادلاً مستقيماً صريحاً شريفاً في الأمور التي لا تعنيه ولا تعوقه عن مطلبه، ومن أجل ذلك صار المخادع الماهر لا يستخدم خداعه ونفاقه في كل أمر .

٢٣ - يقال في علم الطبيعة إن اعتراض نوعين خاصين من الأشعة، قد يحدث ظلاماً في نظرك . وكذلك اجتماع الحجج المتخالفة في الحاجة للأمر وضده قد يحدث ارتباكاً وظلاماً فلا تستبين الأمور إلا إذا بحثت كلا منها على حدة .

٢٤ - كثيراً ما ينسب إلى الرجل الجاهل أكثر الرذائل أو الفضائل ؛ لأن الجاهل يبعثه إلى سوء الظن وإلى القسوة وحب الأذى وكره الفكر والمفكرين ، كما أنه قد يتبع قدوة الناس من غير فكر فيفضل إذا ضلوا ويصيب إذا أصابوا في عمل الخير ، وهو في هذه الحالة الثانية يكون محسوباً من ذوى الفضل والفضائل .

\*\*\*

## تابع نظرات السير أرثر هلبس<sup>(١)</sup>

- ٢٩ -

٢٥ - إنك قلما ترضى رجلك إذا مدحت كلا منهما مدحاً مساوياً لمدحك الآخر بلا فرق ولا تمييز؛ لأن طالب المدح إنما يريد كى تكون له ميزة على غيره.

٢٦ - كما أن بعض الناس يرغب فى الرذائل لأن سبيلها سهل موطأ، فكذلك يرغب آخرون فيها بسبب العوائق التى تعترض سبيلهم فتشبههم مكافحة العوائق وتجعلها محبوبة لديهم.

٢٧ - قد يحترم الناس الرجل الذى يدوس عواطفهم ويؤلم إحساساتهم إذا وجدوا أنه لا يتحرج من أن يدوس عواطف نفسه وأن يؤلم إحساساتها. أما الرجل الذى يؤلم إحساسات غيره كى يرضى إحساسات نفسه وعجبها فإنه لا ينال إلا المقت والاحتقار فى صميم نفوس الناس، ولو أن بعض المعجبين يستهوون الناس بعجبهم وغرورهم فيخضع لهم الناس فترة طالت أم قصرت.

٢٨ - كثيراً ما يكون احترام المحب للمحبوب من رماد الحب بعد فوائده، وكثيراً ما يتلجج إليه المحب الذى فنى حبه كى يخفى به فناء الحب فيحسب الناس دليلاً عليه لما قد يجدون منه فى الحب، ولكنه قد يكون من ندم الحب إذا فنى حبه.

٢٩ - من الخطأ أن يقال إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف نقائص نفسه فإنه كثيراً ما يعرفها، ولكنه يسميها أسماء أخرى خداعاً للناس وتضليلاً لهم ولنفسه. وهو يعرضهم عن ذلك الخداع المضلل بأن يبادر بتسميتها بأسمائها الحقيقية إذا

(١) المقتطف: مارس سنة ١٩٥١.

لاحت له فى غيرہ، أو إذا حسب أنها لاحت له، أو إذا اتهم بها غيره بحق أو بغير حق.

٣٠ - لا تحسب أن المصيبة تمحق كبر الرجل المتكبر إذا حلت به، بل إن كبره لا يزال به موجوداً، وقد يتخذ أشكالاً وألواناً أخرى وينتھز فرصة لاستعادة شكله الأول.

٣١ - لقد صدق باسكال العالم الرياضى الفرنسى إذ قال: إننا نعطف على من كان به اعوجاج فى قدمه بسبب عاهة، ولكننا لا نعطف على من كان به اعوجاج من فكره، لأن الأول لا بد أن يعترف إذا مشى باعوجاج قدمه، أما الثانى فإنه ينكر اعوجاج فكره ويحاول أن يثبت أننا على اعوجاج فى الفكر - ومع صحة رأى باسكال ينبغى ألا نعنف مع صاحب رأى الموعج وأن نعطف عليه وأن نعتقد أن ذلك من آفة فى عقله كافة القدم الموعجة أو كافة الصمم أو البكم، وأن نتذكر أننا أيضاً كثيراً ما يدفعنا التحيز والتشيع إلى الحكم بالباطل، فيظهر اعوجاج فكرنا بالتحيز أو العاطفة وإن كنا نأبه له.

٣٢ - إن للفكر أخذة. ومن أجل ذلك صار العلماء حتى الأفاضل منهم لا يتخرجون من تضليل قرائهم وتضليل نفوسهم؛ كى يثبتوا صواب فكرهم فى أثناء بحثهم، إما من شغفهم بإثباته، وإما لنيل المدح من الناس، ولكن سوء استعمال القوة الفكرية مكروه مثل سوء استعمال القوة البدنية. وهم إذا وصلوا بعد ذلك إلى الصواب فهذا الصواب يكون مثل الممالك التى نزرها فى الأحلام، وقد نعرف أننا فى أحلام إذا فكرنا فى طريق الرحلة إليها (وهذا كما فى قصة الباحثين عن المكروب) وإذا كان هذا شأن العلماء الأفاضل فى البحث العلمى فهو أحرى أن يكون شأن الناس عامة فى حياتهم اليومية.

٣٣ - إن أهل الاستكانة تعوزهم الجرأة على طلب حقهم، فإذا لم تقم أنت بكل حقهم ركبت الشطط فى معاملتهم وسهل عليك الظلم واغتصاب حقوق الناس والرغبة فى استثمار جهودهم بأقل مما يقتضيه العدل؛ إذ قد تعد استكانتهم

دليلاً على نيل ما يستحقون، ولا أمر يتلف صحة رأى المرء فى العدل مثل العيش بين أهل الاستكانة، فإذا عاش بين غيرهم بعد ذلك ظهر ظلمه ودهش لظهور ظلم لم يكن يعتده ظلمًا.

٣٤ - يقولون إن الكذب لا يصدق ولا يقبل؛ لأنه لا أساس له ولا قوة فيه، ولكن لكل كذبة وقت وميعاد وهوى فى النفوس، ولا يمنع من تصديقها أنها لا أساس لها، وقد تكون لها قوة شر كبيرة مستمدة من قوة من يؤمن بها. (وهذا يذكرنا قول ثاكرى: إن الكذب قد يكون أصغر من النقطة، ولكنها مع ذلك كالنقطة السائرة التى تحتل مكانًا كبيرًا وترسم خطأ طويلاً).

٣٥ - قد يكون اليأس كالنوم يجدد قوى النفس والفكر، ولكنه إذا صار عادة ونيرًا أصبح شلاً لهما.

٣٦ - كثيرًا ما يؤدى الندم إلى اليأس من أداء الخير، مع أن المفروض أنه ينبغى أن يؤدى إلى معاودته والتزامه، وإنما يؤدى إلى اليأس من أداء الخير؛ لأنه يحسب أن ما جناه من الشر دليل على حيانه كلها، فيكون مثله مثل من يدع النقطة من السائل الأسود تغطى على جميع ثوبه بدلاً من تلافيتها من أول سقوطها، أو كمن يجد صخرة فى النهر أو عكارة فى نقطة فى جزء من الماء فيحسب أنها تدل على الماء كله.

٣٧ - إذا أردت أن تفهم عصرك فاقراً ما يكتب فيه من القصص؛ فإن المرء كثيرًا ما يريد أن يخفى نفسه فى نفس القاص كى يتمادى فى وصف الرذائل وصفًا مغريًا يجيبها إلى الناس وهو يزعم أنه ينهاهم عنها.

٣٨ - قد توضح حياة المرء ما التبس فى قوله، فهوبز الفيلسوف الإنجليزي الذى زعم أن الدولة هى كل شىء، وأن الناس إذ أنشئوا الحكومات أسلموا لها كل حق - قد اعترف للورد كلارندون أنه إنما فعل ذلك كى يتجنب إلى الحكومة فتسمح له بالعودة من منفاه. ويريدونفى قد نشر رسائل لماكيافيللى يستعطف فيها بعض الأمراء ويشكو إليهم سوء حاله ويقول فيها: إن مبادئ الطغيان التى ذكرها

فى كتابه (الأمير) إنما ذكرها تزكية لأعمالهم فى الحكم، وأنه من أجل ذلك يتسحق أن يعان على أمره بالمال كصدقة، وقد زعم كتاب آخرون أن هؤلاء الكتاب إنما هالهم انقسام الآراء فرأوا أن للأمراء الحق فى توحيدها؛ صيانة للأمن، وحبلاً للوحدة بأية وسيلة حتى الوسيلة العنيفة الشديدة (وذلك هو ما زعم ماكولى فى رسالته عن ماكياڤلى) - وربما كان الدافعان موجودين فى نفس القائل عند قوله ما ذكر.

٣٩ - إن من قلة العقل أن يرفض المرء كل لطف أو عطف، وأن يسىء به الظن؛ لأنه لا يعرف سببه والباعث له، فإنه يكون كمن يرفض ماء النهر لأنه لا يعرف منابعه.

٤٠ - بعض القواعد الأساسية فى الشرائع لا يعمل بها الناس فى حياتهم ومعاشرتهم بعضهم لبعض، فالمبدأ الذى ينص على أن كل متهم برىء حتى تثبت إدانته لا يعمل به الناس، وكذلك المبدأ الذى يشرع أن الشك ينبغى أن يجعل فى مصلحة المتهم لا يأخذ به الناس فى حياتهم الخاصة، فينشأ عن ذلك قلة التسامح. ولو عملوا بهما كانوا أقرب إلى التقوى والعدل والتدين.

٤١ - لقد صدق جوتا إذ قال فى قصة فوست (إن الذى يصمم على أن يعد غير مخطئ إذا كان ذا لسان ذرب سببه أن الطلاقة والمهارة فى الكلام قد تهزم قوى ملكات العقل).

٤٢ - إن عمل الشر لا يتوقف على كبر شأن صاحبه، ومع ذلك فإن الناس كثيراً ما يظنون أن الرجل الحقير لا يستطيع عمل شر كثير حتى وهم متأثرون بما يقول أو ما يصنع من الشر.

\*\*\*

## تتمة نظرات السير أرثر هلبس<sup>(١)</sup>

■ ٣٠ ■

٤٣ - كثيراً ما يكون المرء حتى من كانت عنده شجاعة خلقية كبيرة أداة يحركها غيره أو قرباناً وضحية على مذبح الخداع، كما يحدث في عالم السياسة أو في الحياة اليومية المعتادة. وينبغي للمرء أن يمضى في علمه وفكره لا يبغى تمجيداً ولا حسن ذكرى غير آبه لمدح الناس أو ذمهم؛ فإن طاعة الناس ابتغاء مدحهم قد تكون هزيمة لشجاعته الخلقية.

٤٤ - إن الرجل العملى على كثرة مدحه فى هذا العصر الحديث كثيراً ما يتقدم بفكرة واحدة غالبية عليه ليهدم مبدأ عظيمًا، فيكون مثله مثل من يقطع بغيظ وجرأة رباط عقد غير كريم، فينقطع العقد وتنثر حباته، وقد تضيع بعض أحجارها الغالية الثمينة.

٤٥ - إن الأسباب التى يتقدم بها إليك إنسان لتفسير سلوكه كثيراً ما تغشى رأيه المستتر فيك؛ فإنه يتقدم بالأسباب التى يظن أنها توافق أخلاقك وترضيك.

٤٦ - مما يزيد فى تواضعنا تتبعنا سلسلة الحوادث الماضية فى حياتنا حتى نصل إلى السبب الأول فنجد سبب سعادتنا أو تعاستنا سوء تفاهم تافه أو تأخر طرفة صغيرة أو أشباه ذلك من الحوادث التى تدل على سخر الحياة؛ إذ أن السعادة أو التعاسة ليست مؤسسة دائماً على أسباب هامة كبيرة.

٤٧ - يشعر الناس بنوع من الغرور والإعجاب بالنفس يدعوهم إلى الغرور

(١) المقتطف: أبريل سنة ١٩٥١.

بشراستهم والإعجاب بقله أدبهم؛ إذ يحسبون ذلك فضيلة فيهم تجعل الناس تهابهم فيمعنون في الشراسة وقلة الأدب ويعتبرونهما ميزة لهم وحقاً.

٤٨ - إن الفرد يحاكي لمهارته في المحاكاة، والأغنام تحاكي لأنها ليس عندها عزيمة وعقل، ولكن الانسان هو المخلوق الذي قد يحاكي الأمر الذي يكرهه وما يعرف أنه خطأ خشية لوم الناس.

٤٩ - مما يدل على جلال الصدق وضرورته أن الإنسان إذا كذب مرة تحايل بالكذب مرة أخرى، كى يثبت أنه كان صادقاً في المرة الأولى، فيمعن في الباطل كى يخفى كذبه، ويكون كالحیوان الذى يحفر جحراً عميقاً كى يختفى فيه عن الناس، وعمل الإنسان هذا قد يكون سببه الرغبة فى الظهور بالكمال أو قد يكون مؤسساً على اعتباره أن الكذب مكروه متساو فى شناعته، فإذا كذب كذبة صغيرة شفعتها بأخرى كى يخفيها، والعاقل من يعرف أن كل إنسان به شىء من الباطل فلا يجد داعياً لأن يتورط فى الباطل، فيكون شبيهاً بمن يريق الخبر على ثيابه كى يخفى بقعة منه عليها.

٥٠ - إنك إذا أكرمت إنساناً وكان إكرامك إياه يجلب لك منفعة ومسرة فإنك لا تستطيع أن تنال دائماً اعترافه بجميل ما صنعت، لأنه قد يحمله على محمل إرادتك المنفعة والمسرة لك لا نفعه وإكرامه بالجميل الذى صنعت معه.

٥١ - إن الناس كثيراً ما ينفرون ممن لا يخطئ أبداً ويسئون به الظن، كما ينفرون الناس ممن عنده ذلاقة يستطيع أن يثبت بها أنه دائماً على حق.

٥٢ - إذا خدعك من حولك كثيراً فاعلم أنك خليق بأن تخدع، إما لضعفك وتصديقك كل ما يقال لك، وإما لطغيانك وعدم السماح لهم أن يسمعوك ما تكره سماعه.

٥٣ - إن من الضعف أن تخفى عنمن تستشيريه فيه خشية أن تطلعه على أسرارك التى تود أن تبقى خافية، وأضعف من ذلك أن تأخذ برأيه ونصيحته عند ذلك، لأن رأيه يكون مؤسساً على ما أبديت له دون ما أخفيت عنه.

٥٤ - لا تطلع أحداً على سر قد يضره كتمانها إذا عرف أنه كان يعرفه، فإن الحذر كثيراً ما يدعو إلى إفشائه تجنباً للضرر، ولا تحسب أن طلب العطف والمعاونة يُسوّغُ إطلاعك إياه عليه، ولا تطلع أحداً على سر يزداد عظمة وربحاً بإفشائه، فإن حب العظمة أو الربح كثيراً ما يغلبان الأمانة.

٥٥ - كثيراً ما يأخذ المرء بالفكرة الشائعة من غير تمحيص أو بحث، ثم يجادل ويدافع عنها بكبر وازدراء كأنه أفنى عمره في تمحيصها وبحثها.

٥٦ - قد يُصر الرجل بعد غضبه على صدق كلمات قالها في حالة فورة غضبه، ولم يكن يريد الأخذ بها لولا ذلك الغضب، فيكون مثله مثل من انتقل من حالة هذيان مؤقت إلى حالة جنون دائم.

٥٧ - من الغريب أن الناس لا يتقاتلون ولا يتعادون كما يفعلون ذلك في الأمور العويصة الغامضة التي لا تدركها عقولهم مثل أمور ما وراء الطبيعة، مع أن عدم فهمهم إياها كان ينبغي أن يعلمهم التسامح.

٥٨ - ليس في الناس مخدوع مثل من يخدع نفسه بمعرفة نصف خداع المخادع، وهو يظن أنه يعرف كل نواياه ومقاصده.

٥٩ - إن كلمة (الناس) كثيراً ما يقصرها المرء على طائفة قليلة حوله أو على إنسان أكثر منه دراية ومنطقاً، وهذا ما يصنعه إذا فعل شيئاً أو قال قولاً يريد تأييده، فيقول: إن الناس يريدون ذلك أو يفعلونه - وهذا مثل كلمة (الشعب) التي كان المتطرفون في عهد الثورة الفرنسية الأولى يطلقونها على حثالة الرعاع من الباريسيين.

٦٠ - إن عبد العادة القديمة قد يسخر من عبد الأمور المستطرفة الحديثة السارية، وكلا الأمرين رق ما دام عقل المرء مغلولاً بما يتبع.

٦١ - كثيراً ما يمقت الناس من يدعى الفضل ويخافون ممن يحاول الظهور به ويحسبون أن ذلك إساءة إليهم وتَحْقِيرٌ لهم، مع أنه قد يحاول بما يظهر به التقرب

إليهم وإيناسهم وطلب العطف ونيل الرضا. وقد نسي أن الرجل قد يقول السخر وتحت ذلك السخر قلب رحيم. كما قد نسي أن كثيراً من الناس مختلفون عنا، فليس عندنا وسيلة للحكم عليهم.

٦٢ - لكي يمنع الإنسان كبح نفسه عن الرذائل من أن يبعث فيه الغرور وما يجره الغرور من الآثام ينبغي أن يتأمل الهاوية التي كان على وشك أن يقع فيها لو أنه لم يكبح نفسه عن الرذائل بدل الشعور بالكبر والغرور واضطهاد الناس.

٦٣ - الصدق هو أعم مظهر من مظاهر إنكار الذات وأكثرها تنوعاً؛ لأنه كثيراً ما يعترض بين المرء وبين ما يحب، ولكن المرء كثيراً ما يخفى بعض الحق حتى ولو كان صريحاً ببعضه، إذ يرى أن إخفاء القليل الذي يعده تافهاً قد يؤدي إلى كسب محقق أو يتفادى بإخفائه خسارة يرى أنها محققة فيخفيه استهانة بتفاهته، حتى ولو أدى ذلك إلى سوء فهم للأمر، وقول الحق لا يكون إلا بعقل متزن؛ لأن التضليل قد يكون سببه المبالغة التي تكون طبعاً في النفس. أما الاندفاع في القول فهو تضليل غير مقصود، ولكن ذلك لا ينقص من ضرره. وقول الحق ينبغي أن يؤدي إلى أن يزداد المرء معرفة بنفسه كما ينبغي أن يؤدي إلى قدره غيره قدرًا صحيحًا. ولو عرف الناس نفوسهم لتسامح بعضهم مع بعض وبطل الاضطهاد.

٦٤ - إن الطبع الذي يجمع بين الصراحة في القول والحذر والاحتياط من أن يفهم السامع أكثر مما يعنى بقوله لا يتهاى إلا لمن كان سليم المقاصد والأعمال، وكان يقدر قدرًا لطيفًا دقيقًا إحساسات غيره، وهذه صفات تدله على ما يجوز أو يحكى عن أمور نفسه وما يجوز أن يتحدث به عن أمور غيره بصراحة مقرونة إلى الحذر والاحتياط.

\*\*\*

## نظرات ابن المقفع<sup>(١)</sup>

- ٢١ -

قال الأمير شكيب أرسلان فى مقدمة (كتاب الدررة اليتيمة) لابن المقفع - وهو الكتاب الذى طبع فى مصر وسمى (الأدب الكبير) - «فاخترت طبعها لأنها مع صغر حجمها قد جمعت بين أعلى طبقات البلاغة وأسمى درجات الحكمة، وتضمنت من الحكم البوالغ والحجج الدوامغ ما لم يتضمنه كتاب قبلها ولا بعدها» - والأمير شكيب أرسلان أديب مطلع على كتب الآداب العربية، فهو لا يرسل القول من غير تمحيص بعد أن قرأ كتب الجاحظ والماوردى وابن مسكويه وابن حزم وابن عبد ربه وغيرهم، ومن المستطاع العثور على حكمة وبلاغة فى كتبهم، ولكنها إما مقتبسة من الخطب والأقوال، وإما أنها مع بلاغتها لا تصل إلى ما تصل إليه حكمة ابن المقفع من الإلمام بعادات الناس وطباعهم وأخلاقهم ونزعات نفوسهم وسلوكهم فى الحياة مع بلاغة الإيجاز. ولعل الأمير أرسلان لا ينحو فى قوله منحى المقرظين الذين اعتادوا المبالغة والتعميم فى كل مدحة، ولعله قارن ووازن وخلص إلى هذا الرأى وقد فطن الكتاب إلى تلك الحكمة التى يطريها الأمير شكيب، فكان الكتاب فى عهد الجاحظ يحاكونها وينسبون مؤلفاتهم إلى ابن المقفع كى تروج كما اعترف الجاحظ نفسه وإلا كان نصيبها الكساد والبوار، أما ترجمة ابن المقفع لكتاب كليله ودمنة من الفارسية فهى تذكرنا قول جوته: «إن المترجم كالحاطبة فى البلاد الشرقية تنقل محاسن العروس المحجوبة إلى الفتى الذى يريد أن يتزوجها فتشوقه تلك المحاسن» - فالمترجم

(١) المقتطف: مايو سنة ١٩٥١.

شريك المؤلف يعرض بضاعته أحسن عرض بما يناسبها فى اللغة التى يترجم إليها وإلا ما أجاز ابن المقفع لنفسه أن يضم إلى كتابيه الأدب الكبير والأدب الصغير أقوالاً ذكرها فى كتاب كليله ودمنة ومعانى كأنها من معانيه؛ ومن أجل ذلك يقول فى كتاب الأدب الصغير: «إذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا قولاً بديعاً فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبدع ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً فنظمه قلائد وسموياً وأكاليل، ووضع كل فص موضعه، وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيد به ذلك، وكالنحل وجدت ثمرات أخرجه الله طيبة وسلكت سبلاً جعلها الله ذلاً فصار ذلك شفاء وطعاماً وشراباً منسوباً إليها مذكوراً به أمرها وصنعتها - ويبقى بعد ذلك فرق ما بين الصانع الصنّاع والألمعى النجيب وبين الساطى الذى يسرق الكلام كما هو أو يذهب بمحاسنه فهمه».

وابن المقفع على ما فى قوله من حكمة وإدراك للأمر لم يعصم فى معاملة السلطان الأكبر وهو الخليفة المنصور، ولا فى معاملة عامله على البصرة وهو سفيان بن معاوية بن يزيد ابن المهلب بن أبى صفرة من هنات تخالف ما رسم لمعاشر السلطان ومخالط الوالى وجليسه من حكمة وأدب، فلم ينتفع بحكمته، ونسى قوله إن على من يريد أن يكون إماماً أن يعظ نفسه ويتعظ قبل محاولته وعظ الناس. وقوله: إن العالم يبدأ بنفسه فيؤدبها بعلمه، ولا تكون غايته اقتناء العلم لمعاونة غيره فحسب. فكان مثله مثل فرنسيس باكون الإنجليزى (لورد باكون) فإنه يقول: «إن على القاضى ألا يتخذ القضاء شباكاً وحبائل يقتنص بها الناس» ثم يكون من أواخر القضاة الإنجليز إن لم يكن آخرهم - الذين استخدموا التعذيب وسيلة لانتزاع الاعتراف من نفوس المتهمين، ويعظ الناس بالنزاهة ثم يأخذ الرشوة من المتقاضين، وينصح المفكرين بالاستنتاج المؤسس على المشاهدة الصحيحة، دون التعلق بالأمر النظرية من غير بحث ثم يرفض كثيراً من الحقائق العلمية الحديثة التى وصل إليها الباحثون بالطريقة التى حثّ عليها. فكانت حكمة باكون فى كل هذه الأمور لغيره لا لنفسه، كما كانت حكمة ابن المقفع،

وعلى من يعيبه أن يبحث أولاً فى قوله وعمله، فإن حكمة أكثر الناس لغيرهم لا لنفوسهم فى كثير من الأمور. ويذكرنا ابن المقفع باكون فيما يولع به كلاهما من التشبيهات والأمثال والقصص التى يجلو بها حكمته، وكانت هذه الطريقة محبوبة شائعة فى الأدب الإنجليزى فى عهد الملكة الياصبات وجيمس الأول، ومن أوجه الشبه بينهما أن كليهما مولع بالأساطير التى فيها حكمة ومغزى.

فألف باكون كتابه فى أساطير الإغريق وسماه (حكمة القدماء) وأوضح فيه ما خلف أساطيرهم من حكمة بارعة، كما ترجم عبد الله بن المقفع عن الفارسية أساطير الهند وحكمتهم فى كتاب (كليلة ودمنة) وكل من ابن المقفع وباكون ماهر فى بلاغة الإيجاز. وقد يذكرنا ابن المقفع فى وصف آداب السلوك أديباً إنجليزياً آخر وهو لورد تشستر فيلد، فإن هذا كان همه وصف آداب السلوك كى يهذب ابنه ويصقله. أما أدباء اللغة العربية فلعله لا يقاربه ويقرن به إلا الجاحظ على ما فى الجاحظ من مدح للشئ ومدح لضده، وكتب الجاحظ عالم فى الموضوعات المتنوعة، فلا غرابة إذا اختلف أسلوبه فى كتاب عما هو فى كتاب آخر. فنرى أسلوب الجاحظ فى كتاب (مناظرة الربيع والخريف) أكثره سجع ومزاوجة وموازنة ومقابلة ومرادفة، بينما هو فى كتاب (الدلائل والاعتبار) يكاد يخلو من هذه الأمور ويصدق فيه قول بديع الزمان الهمداني: إنه منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معتاصه يهمله «أما عبد الله بن المقفع فأسلوبه على وتيرة واحدة حتى قيل إنه السهل الممتنع، وفى بعض الأحيان يستعمل المزوجة والموازنة، ولكن لا كاستعمال الجاحظ لها؛ فإن الجاحظ يطيل فيها ويكثر، وهى فى أسلوب الجاحظ لها وقع السجع فى الأذهان حتى إن من لا يلتفت قد يظنها سجعاً. والذي يمتاز به ابن المقفع بلاغة الإيجاز، ولا نعى أن الجاحظ ليس له من الحكم الجوامع، ولكن أكثر أقوال ابن المقفع - ولا سيما فى كتابى (الأدب الكبير) و(الأدب الصغير) - من جوامع الكلم التى تجمع الحكمة فى بلاغة وإيجاز مع استيفاء المعنى، أو ما يكاد يكون استيفاء، وينبغى أن نتذكر أن ابن المقفع كان منكوباً، والمنكوب مخذول فى دعاوى الناس مغبون فى أقوالهم

ومصاب بأكاذيبهم وأباطيلهم، فلا تستطيع الأجيال التي بعد عهده أن تميز الحق من الباطل في كثير مما ينحل من القول وما ينسب إليه من الفعل، إذ هو مهتمضم بعد النكبة لا يجد من ينافح عنه بتميز الصواب فيما ينسب إليه حتى ولو كان مشهوراً محسوداً يحتذى الناس قوله. ولا مناص لنا على هذا الأساس من القول إن حكمته لم تعصمه من الزلل والهلاك، ولا نحسب أن كاتباً قديراً مثله كان يستعصى عليه أن يجمع بين شدة الموثيق ولين اللفظ والتحايل لذلك في كتابه الذي طلب فيه الأمان لعن المنصور الذي ثار عليه وهزم، ولا نظن أنه كان يجهل ما في بغض أقواله من عبارات يتأذى بها الخليفة ولا يتسامح فيها، حتى ولو كتبها على لسان أعمامه مثل قوله (إذا غدر بعمه فساؤه طوائق والمسلمون في حل من بيعته) ولكن المرء قد يجمع إلى الحكمة والمعرفة رعونة الطبع، وهذا كان داءه إذا صحَّ كل ما ينسب إليه مثل تطوعه بالسخر والسفه على حاكم البصرة. فكان إذا دخل عليه وسلم قال: السلام عليكما يعني هو وأنفه، فأنزل أنفه منزلة الإنسان لأنه كان كبيراً، وإذا قال حاكم البصرة: ما ندمت على سكوت قط: قال ابن المقفع: «الخرس زين لك فكيف تندم عليه» يعني أنه كان عيا. وإنه لأمر يدعو إلى الحيرة أن يكون الحاكم مهزلة لرجل مثل ابن المقفع مهما يكن أثيراً عند أعمام الخليفة، وعندما أمر المنصور بقتله قتله هذا الحاكم شر قتلة. ومن الدليل على رعونة طبعه فيما يحكى عنه أنه لما اعتزم الإسلام وكان مجوسى الأصل، وحضر طعام الأمير جعل يزمزم على الطعام على عادة المجوس فليم في ذلك، فقال: أحببت ألا أبيت على غير دين، وهو إما أنه اقتنع بالإسلام حتى أراد أن يشهر إسلامه في غده فهو مسلم بعقله وقلبه فلا معنى لقوله. وإما أنه كان غير مقتنع وكان إسلامه نفاقاً، وقد اتهم بذلك واتهم بالزندقة. ومن رأى أن من حماقة الطبع أيضاً الجملة المشهورة التي يرويها عنه الكتاب أي قوله «شربت الخُطْبَ رِيّاً ولم أضبط لها رويّاً، ففاضت ثم فاضت فلا هي نظام وليس غيرها كلاماً» وهذا سجع شبيه بسجع الكهان. ثم لماذا قصر شربه على الخطب دون غيرها من سائر أنواع النثر، نعم إن للبلاغة نشوة، ولكنه في بعض قوله ينهى

القارئ عن جميع أنواع السكر سكر الشباب وسكر العلم وسكر الذكاء وسكر الجاه وسكر القدرة وسكر المال، وهو في بعض قوله يوضح ما في مدح النفس من سماحة. ومما يروى بصدد ذلك أن الخليل بن أحمد الفراهيدي واضح العروض سئل عن ابن المقفع فقال: علمه أكثر من عقله، وسئل ابن المقفع عن الخليل فقال: عقله أكثر من علمه. ومن الغريب أن المرء عندما يقرأ كتبه ينسى رعونة طبعه أو يكاد يشك فيما نسب إليه من القصص التي تدل على ذلك ويعترف أنه أكبر كتاب العربية في جوامع الكلم وبلاغة الإيجاز والحكمة المؤسسة على ما يشاهد من عادات الناس وطباعهم وأخلاقهم التي تخبر عنها أعمالهم في إيجاز واستيفاء للمعنى أو شبه استيفاء، وهذا هو معنى تقرّظ الأمير شكيب أرسلان الذي ذكرناه.

**وفيما يلي بعض نظراته مع شيء من التعليق علي بعضها :-**

١ - لا يمنعنك صغر شأن أمرئ من اجتناء ما رأيت من رأيه صوباً والاصطفاء لما رأيت من أخلاقه كريماً؛ فإن اللؤلؤة الفاتقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها.

٢ - إذا كنت لا تعمل من الخير إلا ما اشتهيته، ولا تترك من الشر إلا ما كرهته فقد أطلعت الشيطان على عورتك وأمكنته من أزمته. فأوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من عمل الخير فيكرهه إليك وفيما تكره من عمل الشر فيحبه إليك، ولكن ينبغي لك في حب ما تحب من الخير فيكرهه إليك، وفيما تكره من عمل الشر فيحبه إليك، ولكن ينبغي لك في حب ما تحب من الخير التحامل والصبر على ما يستثقل منه، وينبغي لك في كراهة ما تكره من الشر التجنب لما يجب منه.

٣ - إنه تكاد تكون لكل رجل غالية حديث إما عن بلد من البلدان أو ضرب من ضروب العلم أو صنف من صنوف الناس أو وجه من وجوه الرأي أو ما هو شبيه بذلك، وعندما يعزم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف ويعرف منه الهوى فاجتنب ذلك في كل موطن.

\*\*\*

## تتمة نظرات ابن المقفع (١)

- ٢٢ -

٤ - لا يوقعنك بلاء خلصت منه في آخر لعلك لا تخلص منه - وقد يخلص الناس من بلاء بوسائل توقعهم في بلاء آخر ويوهمون أنفسهم أنهم ربما وجدوا خلاصاً سهلاً من هذا البلاء الآخر متى شاءوا بعد اتخاذه وسيلة للخلاص من البلاء الأول، وأقرب مثل لذلك الكاذب الذي يخلص من بلاء بكذبة موبقة وادعاء يوقعانه في مؤاخذه لو عرف بطلان كذبه وادعائه، أو مثل الذي يتجنى على آخر ثم يحاول أن يخلص من عاقبة تجنبه بجناية أخرى.

٥ - لو أن رجلاً كان عالمًا بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سمى جاهلاً، ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك الطريق المخوف، ومن ركب هواه ورفض ما ينبغى أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غيره فكان كالمريض العالم بردىء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقله، ثم يحمله الشره على أكل رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته، وأقل الناس عذراً في اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعضه، كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقها فيها، كانا إذا صارا في قاعها بمنزلة واحدة، غير أن البصير أقل عذراً عند الناس من الضيرير إذ كانت للأول عينان يبصر بهما، وهذا بما صار إليه جاهل - وللفيلسوف سقراط رأى في موضوع الشر والخير فهو يقول كما روى أفلاطون

(١) المقتطف: سبتمبر ١٩٥١.

عنه: إن المرء لا يرتكب الشر ويختاره وهو يعلم أنه شر، ولا يتجنب الخير وهو يعلم أنه خير، ولعله يعنى أن الأهواء تغطى على بصيرته فيصير علمه جهلاً، وتوهمه أن فى عمل الشر خيراً أكبر، وفى تجنب بعض الخير خيراً أعظم، وهذا كما وصف به المأمون العلم فقال: العلم بصر فى خلافه العمى، والاستبانة للشر ناهية عنه والاستبانة للخير أمرة به.

٦ - إن فى الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب - إذا غضب - أن يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب فى وجه غير من أغضبه وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته، وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك. ثم يبلغ به الرضا - إذا رضى - أن يتبرع بالأمر ذى الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده، يعطى من لم يكن أعطاه، ويكرم من لا حق له ولا مودة. فاحذر هذا الباب كله؛ فإنه ليس أسوأ حالاً من أهل القدرة الذين يفرطون باقتدارهم فى غضبهم وسرعة رضاهم، فإنه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله ويتخبطه المس من يعاقب فى غير من أغضبه، ويحبو عند رضاه غير من أرضاه، لكان جائزاً فى صفته - (وهذا يذكرنا الأمراء الذين كانوا يعاقبون بالقتل رسلهم الذين يبلغونهم خبراً سيئاً، كفرعون فى قصة ثيوفيل جوتيه، كما يذكرنا أيضاً دانتيو الشاعر الإيطالى الذى كان يمنح من خدمه ومن لم يخدمه من خدم النزل والمطعم مالاً كثيراً لا تسمو إليه همتهم خشية احتقارهم إياه؛ لأنه كان به الشعور بالنقص).

٧ - اعلم أن بعض شدة الحذر عون عليك فيما تحذر، وأن شدة الاتقاء قد تدعو إليك ما تتقى (وتولع بك ما تخاف ممن تخاف؛ لأن الإفراط فى الحذر قد يؤدى إلى الحيرة والارتباك والقلق والتخلق بمظاهر الريبة، والمريب متهم، والريبة تجذب عداوة الناس إلى صاحبها كما يجذب المغناطيس الحديد).

٨ - قارب عدوك بعض المقاربة تمل حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك عدوك، وتذل نفسك، ويرغب عنك ناصرك، ومثل ذلك مثل العود

المنصوب فى الشمس إن أملتة قليلاً زاد ظله وإن جاوزت الحد فى إمالته نقص الظل - (وفى التذلل للعدو يقول إبراهيم بن العباس صاحب المقطعات الجامعة:

يصبح أعداؤه على ثقة منه وخلاته على وجل

تذكلاً للعدو عن ضعة وصوله بالصديق عن دخل

٩ - إياك أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك، فيكون ثلثة من الثلم يتقحمون عليك منها، وباباً يفتحنوك منه، وعبية يغتابونك بها ويضحكون منها. واعلم أن قابل المدح كمدح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده، فإن الراد له محمود، والقابل له معيب - (أين هذا الأدب من هراء سجع الكهان فى الغزل المنسوب إليه: شربت الخطب رياً، ولم أضبط لها رويًا، ففاضت ثم فاضت فلا هى نظام، وليس غيرها من الكلام).

١٠ - أمور لا تصلح إلا بقرائنها: لا ينفع العقل بغير ورع، ولا الحفظ بغير عقل، ولا شدة البطش بغير شدة القلب، ولا الجمال بغير حلاوة، ولا الحسب بغير أدب، ولا السرور بغير أمن، ولا الغنى بغير جود، ولا المروءة بغير تواضع، ولا الخفض (أى اليسر) بغير كفاية، ولا الاجتهاد بغير توفيق - (وإلا أدى العقل إلى الفساد، والحفظ إلى الخطأ، والبطش إلى الانكشاف والانخزال، وكان الجمال سمجًا، وكان ما تحت الحسب دناءة وشراسة، وواء السرور همًا وقلقًا، وكان الغنى بطرًا ولؤمًا، والمروءة منًا، والخفض عسرًا لا يغنى والاجتهاد عناء وخبية).

١١ - إن صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوء الظن بالأخيار وحملته تجربته فى صحبتهم على الخطأ - وأقل ما يكون من ذلك أن الأخيار إذا عاملوه بالكرم والخير واللين حسب كل ذلك منهم فحوا وشركًا يريدون أن يوقعوه فيه - وقد يغالى فيحسب كل برىء متهمًا حتى تظهر براءته، بدل أن يحسب كل متهم بريئًا حتى تظهر إدانته، وبطبيعة عملهم ومقابلتهم للأشرار، يميل رجال الشرطة ومن شابههم إلى سوء الظن بالناس.

١٢ - إذا أردت السلامة فأشعر قلبك الهيبة للأمر من غير أن تظهر منك الهيبة فيفطن الناس لهيبتك، ويجرئهم عليك ظهورها، ويدعو إليك منهم كل ما تهاب. فاشحذ طائفة من رأيك لمداراة ذلك من كتمان المهابة وإظهار الجرأة والتهاون، وعليك بالحذر في أمرك، والجرأة في قلبك، حتى تملأ قلبك جرأة، ويستفرغ الحذر عملك - (وإنما يريد بالهيبة ذلك الحذر الذي يصون عمله من الخطأ).

١٣ - ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم في لين كلمتك، وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك، وبقاء عزك: (وليس لين الكلمة وحسن البشر نقصاً ومذلة كما يعدهما ذوو النقص. قال المأمون كما روى الثعالبي: ما تكبر أحد إلا لنقص وجده في نفسه، ولا تطاول إلا لوهن أحسه منها).

١٤ - إذا نابت أخاك نائبة من النوائب، من زوال نعمة، أو نزول بلية، فاعلم أنك قد ابتليت معه إما بالمؤاساة فتشاركه في البلية، وإما بالخذلان فتحتمل العار، فالتمس المخرج عند اشتباه ذلك، وأثر مروءتك على ما سواها، فإن نزلت الجائحة التي تأتي نفسك مشاركة أخيك فيها فأجمل (أى فى معاملته وعند ذكره ولقياه) فلعل الإجمال يسعك لقلته فى الناس (إذ أن أكثرهم ينقلب فيصير عدواً كى لا يقال إنه خذل صديقاً).

١٥ - اعرف عورتك وإياك أن تُعرضَ بأحد فيما شاركها، واعلم أن الناس يخدعون أنفسهم بالتعريض والتوقيع بالرجال فى التماس مثالبهم ومساوئهم ونقيصتهم، وكل ذلك أبينُ عند سامعه من وضح الصبح، فلا تكونن من ذلك فى غرور، ولا تجعلن نفسك من أهله.

١٦ - من الدليل على سخافة المتكلم أن يكون ما يرى من ضحكه ليس على حسب ما عنده من القول، أو الرجل يكلم صاحبه فيجاذبه الكلام ليكون هو المتكلم، أو يتمنى أن يكون صاحبه قد فرغ وأنصت، فإذا أنصت لم يحسن الكلام.

١٧ - وقر من فوقك ومن دونك، وأحسن مؤاتاتك الأكفاء، وليكن أثر ذلك عندك مؤاتاة الإخوان، فإن ذلك هو الذى يشهد لك بأن إجلالك من فوقك ليس بخنوع لهم، وأن لينك لمن دونك ليس لالتماس خدمتهم.

١٨ - إن أمور الدنيا ليس شىء منها بثقة، وليس شىء من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز، بل ربما أعيا الحزمة ما أمكن العجزة، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل، فلا تجعل ذلك عليه لومًا وعدلاً؛ تقول أنت فعلت هذا بى وأنت أمرتنى، ولولا أنت ولا جرم لا أطيعك، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك أو ترك فبدا صوابك فلا تمتن ولا تكثرن ذكره، ولا تلم عليه إن كان استبان فى ترك نصحك ضررًا، تقول ألم أقل لك؟ ألم أفعل؟ فإن هذا مجانب لأدب الحكماء.

١٩ - العجب آفة العقل، واللجاج عقيد الهوى، والبخل لقاح الحرص، والمرء فساد اللسان، والحمية سبب الجهل، والأنف توءم السفه، والمنافسة أخت العداوة: (فالمعجب بنفسه يزين له عجبه الخطأ فلا يراه خطأ، والكثير اللجاج كثير العناد فى الدفاع عن هواه، والبخل يربيه الحرص وينميه حتى يستفحل ويحرم نفسه وغيره مما وهبه الله، والمرء يستدرج إلى بذاءة اللسان، والحمية إذا استشرت كانت من دلالات الحمق، والأنف من التسهل فى معاشره الناس يؤدى إلى السفه، والمنافسة فى حطام الدنيا كثيرًا ما تؤدى إلى العداوة بين الآحاد والأمم).

\*\*\*